رابعا : في أصل الخط العربي

إن اللغة والخط والكتابة من جملة الصناعات المدنية التي تقوى وتضعف بقوة الحضارة نفسها أو ضعفها ، واللغة العربية من اللغات التي عرفها التاريخ منذ زمن بعيد ، وهي إحدى اللغات السامية التي سكن أهلها شبه جزيرة العرب بعد تشتت الساميين ، والذين انتشروا في أنحاء مختلفة من العالم ، فنتج عن ذلك انحلال لغتهم السامية إلى عدة لغات كانت منها اللغة العربية ، وقد تميزت اللغة العربية وكتابتها بعمق جذورهما في التاريخ ، فأقدم مرويات اللغة العربية تعود إلى مطلع القرن الأول الميلادي ، كما أن أقدم نقوشها الكتابية التي ظهرت فيها الحروف العربية بشكل واضح تعود إلى منتصف القرن الثالث الميلادي على الأقل ، ومثل هذه التواريخ الموغلة في القدم على مستوى اللغات الحية وتدوينها يجعل محاولة الكشف عن أصولها ضربا من الفرضيات والنظريات والتخمينات ، ولذلك تعددت الآراء والنظريات المتعلقة بأصل الكتابة العربية واعتمدت على الروايات تارة وعلى النقوش الأثرية تارة أخرى ، وعموما فقد انضوت هذه النظريات تحت ثلاث اتجاهات رئيسية تبعا لطريقة الاحتجاج .

1 - اتجاه المرويات العربية :

وتنضوي تحته أغلب النظريات ويذهب أصحابه إلى الاعتماد على بعض الروايات والنصوص العربية بما فيها نصوص الكتاب والسنة لتفسير أصل الكتابة العربية ، لكن هذه المرويات تفتقد للسند أحيانا أو تعتمد على الآراء الخاصة في تفسير النصوص خاصة القرآنية ، وهناك ثلاث نظريات أساسية تندرج تحت هذا الاتجاه :

أ - نظرية التوقيف :

ومفادها أن الخط توقيف من الله تعالى علمه لآدم عليه السلام ومنه انتقلت لباقي البشر ، ومن أدلتها من الكتاب قوله تعالى **" اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم "** ، وقوله **" ن والقلم وما يسطرون "** ، وجاء في كتاب الصاحبي لابن فارس "يروى أن أول من كتب الكتاب العربي والسرياني والكتب كلها آدم عليه السلام قبل موته بثلاثمائة سنة ، كتبها في طين وطبخه فلما أصاب الأرض الغرق وجد كل قوم كتابا فكتبوه فأصاب إسماعيل عليه السلام الكتاب العربي" ، وقيل إن أول من خط بالقلم بعد آدم إدريس عليه السلام (ابن عبد ربه والطبري والقلشندي) ، وروي عن ابن عباس أن أول من وضع الكتابة العربية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام (ابن

النديم) ، وقد أشار القلشندي إلى أن الكتابة يمكن أن تكون توقيفية واصطلاحية معا " وقضية هذه المقالة أنها توقيفية علّمها الله تعالى بالوحي ، والمقالتان الأولتان محتملتان لأن تكون توقيفية وأن تكون اصطلاحية وضعها آدم وإدريس عليهما السلام ، على أنه يحتمل أن يكون بعض ذلك توقيفا علمه الله تعالى بالوحي وبعضه اصطلاحيا وضعه البشر ، واحد أو جماعة ، فيصير الخلاف فيه كالخلاف في اللغة هل هي توقيفية أو اصطلاحية على ما هو مقرر في علم الأصول ، والله سبحانه وتعالى أعلم " .

بـ - النظرية الحيرية الشمالية :

وهي من النظريات التي قال بها الإخباريون العرب الذين أخذوا بمقولة الوضع والاصطلاح في اللغة والكتابة ، ومفادها أن الخط العربي انتقل إلى العرب من الحيرة في العراق ، وانتقل إلى الحيرة من الأنبار ، وانتقل إلى الأنبار من اليمن ، وقد جاء في الفهرست *"قال ابن عباس أول من كتب بالعربية ثلاثة رجال من بولان (قبيلة بالأنبار) وأنهم اجتمعوا فوضعوا حروفا مقطعة وموصولة وهم مرامر بن مرة (ويقال مروة) وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة (ويقال جدلة) ، فأما مرامر فوضع الصور وأما أسلم ففصل ووصل وأما عامر فوضع الإعجام ، وسئل أهل الحيرة ممن أخذتم الخط العربي فقالوا من الأنبار"* ، وعند الصولي " روي عن ابن جعدة أن أول من كتب العربية مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة اجتمعا حتى وضعا مقطعه وموصوله ، وهما من أهل الأنبار ، قال وسئل المهاجرون من أين تعلموا الكتاب فقالوا من أهل الحيرة فسئل أهل الحيرة من أين تعلموا فقالوا من أهل الأنبار" ، وجاء عند البلاذري مختصرا "اجتمع ثلاثة نفر من طيء ببقة وهم مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة فوضعوا الخط ، وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية ، فتعلمه منهم قوم من أهل الأنبار ، ثم تعلمه أهل الحيرة من أهل الأنبار ، وكان بشر بن عبد الملك الكندي يأتي الحيرة فيقيم بها الحين فتعلم الخط العربي من أهل الحيرة ، ثم أتى مكة في بعض شأنه فرآه سفيان بن أمية وأبو قيس بن مناف يكتب فسألاه أن يعلمهما الخط فعلمهما الهجاء ثم أراهما الخط فكتبا" ، وهناك روايات كثيرة مشابهة لهذه الروايات الشابقة في مصادر أخرى .

جـ - النظرية الحميرية :

أما الثالثة فهي النظرية الحميرية وتفيد بأن الكتابة العربية انتقلت من اليمن حيث كان يسود خط المسند لينتقل إلى الشمال ، ويبدو ـن ذلك راجع إلى شهرة خط المسند في الأوساط العربية القديمة ، وقد نشأ هذا الخط في اليمن لكنه تطور في شمال الجزيرة على يد شعوب عربية أهمها اللحيانية والثمودية والصفوية وافترق إلى عدة خطوط ، وقد بادت هذه الشعوب لكنها خلفت لنا الكثير من النقوش بخطوطها لا تختلف كثيرا في شكلها وقواعدها عن مسند الجنوب ، كما انتشر المسند في الساحل الإفريقي المقابل لليمن ، وهذا الانتشار هو ما يفسر الاعتقاد السائد في كثير من الروايات العربية أن الخط العربي اشتق من المسند ، فعند القلشندي *"وقيل أول ما ظهرت ـيقصد الكتابة- في اليمن"* ، وقيل لابن عباس من أين تعلمتم الهجاء والكتابة قال علمناه من حرب بن أمية ، وقيل ومن علمه حرب بن أمية ، قال من طارئ طرأ علينا من اليمن ، وذكر ابن خلدون *" وقد كان الخط العربي بالغا مبلغه من الإحكام والإتقان والجودة في دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف ، وهو المسمى بالخط الحميري ، وانتقل منها إلى الحيرة"* وفي موضع آخر *"فالقول بأن أهل الحجاز إنما لقنوه من الحيرة ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وحمير هو الأليق من الأقوال"*. ، ويرى ابن النديم أن كلام العرب قد جاء في أصله من حمير لكنه يرى بأن خط المسند على غير كتابة العرب القديمة ألف باء تاء .

2 - اتجاه النقوش والآثار :

وهو الاتجاه الذي يحاول أصحابه تفسير أصل الكتابة العربية اعتمادا على الأدلة المادية من نقوش وكتابات قديمة ، فهو اتجاه علماء الآثار ، وتندرج ضمنه نظريتان أساسيتان ، جنوبية وشمالية ، فأما الجنوبية فهي التي تقول بأن خط المسند الحميري هو أصل الخط العربي وذلك اعتمادا على النقوش وليس الروايات ، ومن أنصار هذه النظرية محمد علي مادون ومحمد حميد الله ، ويعتمدون في آرائهم على قوة انتشار المسند قبل مجيء الإسلام بقليل ، وذلك من خلال النقوش الكثيرة المنتشرة في شبه الجزيرة العربية ، وليس اليمن فقط .

وأما الشمالية فهي التي تقول بأن الكتابة العربية مشتقة من الخط النبطي ، وهو القول الذي عليه أكثر الباحثين العرب والمستشرقين ، ومنهم جواد العلي وإبراهيم جمعة وغيرهما ، ويستند

هذا الرأي على الشبه الكبير بين صور الحروف والكلمات بين الخط النبطي والعربي ، بالإضافة إلى تلاصق الحروف ، وهناك مجموعة كبيرة من النقوش النبطية التي تدعم ذلك نذكر منها :

أ - **نقش أم الجمال الأول** : وهو نقش غير مؤرخ إلا أنه يعود لمنتصف القرن الثالث ميلاديبحسب الباحثين ، وقد وجد بمنطقة أم الجمال من أعمال حوران شرقي الأردن ، ويقع في تسع كلمات تتضمن 31 حرفا ، وأغلب كلماته غير عربية ، وصور حروفه تشبه الخط النبطي القديم .

بـ - **نقش النمارة** : مؤرخ بسنة 328 م وعثر عليه بمدفن امرئ القيس بن عمر ، أحد ملوك الحيرة ، وذلك في موقع النمارة بالقرب من جبل الدروز ، ونجد فيه كلمات عربية مثل (جاء ، هزم والشعوب) ، وقد ظهر فيه شكل اللام ألف المزدوج ، وهي سمة للكتابة النبطية العربية المتأخرة .

جـ - **نقش زبد** : مؤرخ بـ 511 م وعثر عليه بقرية زبد بين قنسرين ونهر الفرات جنوب شرقي حلب على قطعة حجر أعلى كنيسة مارسركيس ، وهو مكتوب بثلاث لغات هي اليونانية والسريانية والعربية ، وظهر هنا التطور والتناسق في شكل الحروف واقتربت صورها من الحروف العربية خاصة اللام ألف المزدوجة .

د - **نقش أسيس** : يعود لسنة 528 م وعثر عليه في جبل أسيس جنوب شرقي دمشق ، عثرت عليه بعثة ألمانية سنة 1965 ، وحروفه مشابهة جدا لنقس زبد .

هـ - **نقش حران** : مؤرخ سنة 598 م وعثر عليه بمنطقة حران شمال جبل الدروز ، كتب على حجر فوق باب كنيسة ، ويعتبر عند الكثيرين أول نقش كل كلماته عربية .

و - **نقش أم الجمال الثاني** : يعود تاريخه لأواخر القرن السادس ميلادي ، وهو شاهد قبر عثر عليه بأم الجمال ، كتب بلغة عربية شمالية قريبة جدا من اللغة التي نزل بها القرآن الكريم أو هي نفسها .

3 - اتجاه الجمع بين المرويات والنقوش :

وهو الاتجاه الذي حاول أصحابه الاعتماد على النقوش والكتابات الأثرية وتوجيهها بشكل يسمح بالتوفيق بينها وبين المرويات العربية التي عز عليهم إهمالها تماما وعدم الاستفادة منها ، ويصل أصحاب هذا الاتجاه إلى أن الخط العربي مشتق من الخط النبطي الذي كان منتشرا في

الشمال ، لكن الأنباط بدورهم تأثروا بالخطوط اللحيانية والثمودية والصفوية ، وهي التي تطورت عن المسند بعد انتقاله للشمال ، فهو اتجاه يسمح بالجمع بين النظريتين الجنوبية والشمالية إذا .